

تمثُّلات المثقَّف في رواية "غرفة الذِّكريات" لـ "بشير مفتي"

د/ سامية غشير

جامعة باجي مختار - عنابة - الجزائر -

الملخِّص:

يهدف هذا المقال إلى إجلاء صور المثقَّف وتمثُّلاته المختلفة في رواية "غرفة الذِّكريات" لـ "بشير مفتي" ورصد علاقاته المختلفة مع واقعه وبيئته الاجتماعيَّة ومع السُّلطة السياسيَّة، إضافةً إلى الوقوف عند أهمِّ الأفكار والمرجعيات السُّوسيوثقافيَّة والنَّفسيَّة والفكريَّة المشكَّلة لشخصيته.

لقد جسَّدت رواية "غرفة الذِّكريات" لـ "بشير مفتي" نماذجَ عديدة للمثقَّف، ونقلت مختلف مواقفه وانطباعاته المختلفة، ونلاحظ الحضور المهيمن لهذه الشَّخصيَّة في فترة التسعينيات، هذه المرحلة التي شهدت ثورةً في الشَّكل والمضمون، كما انكبَّت الرواية على الاشتغال على تيمة المثقَّف، كونه كان أكثر عرضةً للعنف والموت أكثر من غيره.

الكلمات المفتاحية:

المثقَّف، صور، تمثُّلات، شخصيَّة، غرفة الذِّكريات.

Summary:

This article aims at expelling the images of the intellectuals and their different representations in the novel "Memories Chamber" of "Bashir Mufti" and monitoring its various relations with its reality and its social environment and with the political authority, as well as standing at the most important sociocultural, psychological and intellectual issues of personality.

The novel "The Memoir Room" of "Bashir Mufti" embodies many models of the intellectual, and quoted the different positions and impressions of the various, and note the dominant presence of this character in the nineties, this stage, which saw a revolution in form and content, and the novel began to engage in the cult of the intellectual, He was more prone to violence and death than others.

key words:

Intellectuals, pictures, representations, personality, memories room.

-1 تعريف المثقف:

أ- التعريف اللغوي

ورد في معجم لسان العرب مادة تَقَفَّ: "تَقَفَّ الشَّيْءُ، تَقَفًّا وَتَقَافًا وَتَقُوفَةً: حَدَفْتَهُ، وَرَجُلٌ تَقَفٌّ وَتَقَفٌّ: حَادِقٌ، فَهْمٌ، وَأَتْبَعُوهُ فَقَالُوا تَقَفَّ لَقَفٌّ وَقَالَ أَبُو زِيَادٍ: رَجُلٌ تَقَفٌّ لَقَفٌّ. اللَّحْيَانِيُّ: رَجُلٌ تَقَفٌّ لَقَفٌّ وَتَقِيفٌ وَتَقِيفٌ لَفِيقٌ بَيْنَ التَّقَافَةِ وَاللَّقَافَةِ. ابْنُ السَّكِينِ: رَجُلٌ تَقَفٌّ لَقَفٌّ إِذَا كَانَ ضَابِطًا لِمَا يَحْتَوِيهِ قَائِمًا بِهِ، وَيُقَالُ: تَقَفَّ الشَّيْءُ: وَهُوَ سُرْعَةُ التَّعْلِيمِ. ابْنُ دَرِيدٍ: تَقَفَّتْ الشَّيْءُ: حَدَفْتُهُ وَتَقَفَّتُهُ إِذَا ظَفَرْتَ بِهِ." (1)

وَتَقَفَّ الرَّجُلُ تَقَافَةً أَيْ صَارَ حَادِقًا خَفِيفًا مِثْلَ صَخْمٍ فَهُوَ صَخْمٌ، وَمِنْهُ الْمُتَقَافَةُ، وَتَقِفَ أَيْضًا تَقَفًّا مِثْلَ: تَعَبٌ " تَعَبًا أَيْ صَارَ حَادِقًا، فَطَنًا

:وَالتَّقَافُ: مَا تَسَوَّى بِهِ الرِّمَاحُ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَمْرٍو

إِذَا عَصَّ النَّقَافُ بِهَا إِشْمَازَتْ

نَشَجَ قَفَا الْمُتَقَفِّ وَالْحَبِيبِنَا

(2). وَتَقِيفُهَا: تَسْوِيتُهَا

ب- التعريف الاصطلاحي

لقد لقي الباحثون والدارسون صعوبات جمة في تحديد تعريف للمثقف وترجع صعوبة تعريف المثقف إلى أن المثقفين لا يشكلون طبقة مستقلة قائمة بذاتها؛ بل يتغلغلون في الطبقات المكونة للمجتمع، ويتحركون بحرية على سلم المجتمع صعوداً أو هبوطاً. وعلى الرغم من تعدد تعريفات المثقف يمكن إرجاع هذا التعدد إلى معيارين استند إليهما الباحثون في تعريف المثقف، وهما معيار الثقافة، ومعيار الوظيفة أو الدور. (3)

إن مفهوم المثقف هو مفهوم متحرر من كل ما يعيق تطوره، من قيود مجتمعية وسياسية وفكرية؛ بل هو مفهوم متصل اتصالاً عميقاً بملامح العصرنة والتحضّر والرقي، فمفهوم المثقف هو مفهوم منفتح، متحرر من القيود والصياغات الجامدة والمتحجرة، ليس فقط القيود السلطوية؛ بل أيضاً التصورات الشعبية المختلفة، فهو يرتبط أساساً بمفهوم التحديث والعصرنة في العالم، وتتغير دلالاته تبعاً لمجريات التطور والتحديث عبر الزمن، نقصد كل الأزمنة. (4)

إنّ شخصيّة المثقف هي شخصيّة قيادية تنتمي إلى النخبة، تملك القدرة على التأثير في الناس، وتغيير الأوضاع والظروف بفعل ما تملكه من راحة الفكر، وعظمة الأفكار وقوتها، فالمثقف هو ذلك الإنسان الذي يملك من العلم والثقافة والمواقف الإنسانية والحضارية المختلفة، كما يتسم بالرؤية الثاقبة للحياة والأشياء، ينور حياة وطنه ومجتمعه؛ بل يتبنى أفكار المجتمع وطموحاته وأهدافه، ويأخذ أدواراً عديدة تنهض على حمايته والعمل على تقدّمه وتطويره. فالمثقفون هم "الأشخاص الذين يمتلكون المعرفة Knowledge وموهبة الحكم Judgment على المواقف المختلفة والصفة الغالبة على كلّ المثقفين هي إستيعابهم لأدوات المعرفة، وإستخدامها في العمل الذهني (5)". Mentallaw

فالمثقف ينظر للأشياء والأمور نظرة صادقة وموضوعية، نابعة من المواقف الإجتماعية المختلفة، فمساهمته جليلة في بناء الموقف الاجتماعي، من خلال التفاعل الحميم بينه وبين أفراد مجتمعه، حيث ينصهران ويتحدّان كلحمة واحدة "وعادةً ما يزيد تطوّر المجتمعات وتقدّم الحضارات هذه التفاعلات القائمة بين الإنسان المثقف وبين عالمه الاجتماعي والحضاري ثقافة واحدة، طالما كانت مساهمة المثقفين عن طريق قواهم العقلية المستمدّة من معارفهم وعلومهم أحد العوامل الأساسية في تطوير المجتمع نحو تقدّمه الحضاري". (6)

2- تمثلات المثقف في رواية "غرفة الذكريات" بشير مفتي:

أ- المثقف اللامنتمي:

إنّ الثقافة الاجتماعية السائدة والمغايرة لثقافة وفكر المثقف تشعره بحالة الانفصال الكلي عن مجتمعه، حيث لا يعترف بمنظومة القيم الاجتماعية السائدة، والتي يراها بعيدة عن القيم التي يؤمن بها، ونجد حضور هذا النموذج من المثقفين في الرواية الجزائرية خاصة المعاصرة ذات التوجه الفلسفي الوجودي.

إنّ ذلك المثقف يظهر نابداً للمنظومة الإيديولوجية التي يقدّسها ذلك المجتمع، بل يقف حيادياً لا يؤمن بقيمه ولا يعمل على تغييرها. فهذا النمط من المثقفين "يرفض الانسجام مع المجتمع ولا يعتني بقضاياها ولا يهتم بتغييره، فهو ينتقد ويسخر من أجل السخرية، وليس من أجل تغيير المفاهيم الخاطئة التي تشيع في المجتمع، ولا يرضى عنها". (7)

وفي رواية "غرفة الذكريات" لـ "بشير مفتي" نلاحظ حضور هذا النموذج من المثقفين، منهم المثقف الشاعر "سمير عمران" الذي يعدّ أنموذج المثقف اللامنتمي، فهو يشعر أنّه لا ينتمي إلى جغرافية ذلك العالم الذي ولدّ داخله الخسران والفقدان والهزيمة، فهو يراه متعارضاً مع رؤاه وأفكاره، حيث يطرح جملة من الأسئلة

"لماذا خلقنا في هذه النقطة بالذات من العالم؟ هل لنا ألم؟ هل نشعر أنّ حياتنا سيئة؟ هل لنتعذب فقط؟ أنا لا أعرف الأجوبة، ولكن أشعر أنّ هذه النقطة من العالم مؤلمة جدًا وتؤلمني كثيرًا." (8)

ب- المثقف السلبي / الانهزامي:

إنّ شخصية المثقف الانهزامية هي التي تقف عاجزة عن التمرد أو الرّفص؛ بل تتمظهر متسلمةً لقدرها ومصيرها، ولأشكال القمع والاضطهاد المختلفة من قبل أجهزة السّلطة السّياسية أو سلطة المجتمع.

وفي كثير من الحالات تبرز حالات انهزام المثقف في المحيط الذي يعيش فيه، والذي يعيق عملية الإبداع؛ وهذا ما يزيد من سلبيته، فينهزم الفنّ، ولا يقدر هذا المثقف على مقاومة السّلطة والمجتمع.

وتختلف أشكال الانهزامية من مثقفٍ إلى آخر، ومن أبرز هذه الصّور وأكثرها تأثيرًا في الرواية نجد شخصية المثقف "عزيز ملك"، هذه الشّخصية المثقفة الحاملة بتغيير أوضاعها وأوضاع مجتمعها إلى الأفضل، غير أنه بسبب قساوة الحرب وبشاعة الإرهاب أضحي مستسلما، متوقفا عن المقاومة والكتابة "كان زمن الهلاك قد بدأ ولم يعد أحد بقادرٍ على إيقاف هجومه السّاحق. ومع ذلك كان كلّ تفكيري مستغرقًا في تلك العلاقة العشقية مع ليلي مرجان." (9)

ج- المثقف الإيجابي / المتمرد

إنّ المثقف الإيجابي / المتمرد هو عكس المثقف السلبي الانهزامي، هو المثقف الذي يحمل على عاتقه مهمة تغيير القيم الاجتماعية والسياسية السائدة، والتي تعيق تطوّر المجتمع ورفيّه، وغالبًا ما يتعرّض لهجوم عنيف من قبل تلك المنظومات، والتي تسعى لإخراص صوته، والحدّ من أدواره المختلفة، وذلك بتعرّضه لعمليات القتل والاعتقال العمدي أو الترهيب النفسي. فالمثقف الإيجابي هو "المثقف المصلح المغيّر، وهذا هو الوضع الصّحيح لأيّ إنسان قبل أن يكون مثقفًا وواعيًا لدوره في الحياة. وحقيقة جميع من خسروا حياتهم، وكثيرًا من أحلامهم وطموحاتهم أنّهم كانوا مصلحين." (10)

لقد سعت الرواية الجزائرية إلى تسجيل انطباعات الكتاب ومواقفهم وآرائهم حول ما يحدث في الجزائر غداة العشرية السوداء، حيث عمدت إلى إسماع صوت المثقف ونقل إحساسه؛ لأنّه المستهدف الأول من طرف الجماعات الإرهابية "والمثقف الذي كان له رأي مناهض ومندد لما يحدث في الجزائر والمتمثّل في الكتاب والأدباء والفنانين والصحافيين، ونتيجة لمجاهرته برأيه وفضحه للجرائم قوبل برد عنيف وعوقب بأشدّ ممّا كان يتوقع، ولقد بلورت الرواية الجزائرية موقفًا للمثقف وصوّرت الأحداث التي مرّت بها." (11)

في رواية "غرفة الذكريات" تطالعنا شخصية المثقفين الذين ذاقوا ويلات العنف واختلفت مصائرهم. والملاحظ أنّ شخصية المثقف الصحفي كانت حاضرة بقوة في الروايات لارتباط الصحفيين بأداء أدوار هامة جداً تتمثل في ترسيخ الوعي الجمعي، وتوعية الناس ببشاعة واقعهم المأساوي السوداوي عبر مقالاتهم الساخرة من منظومة السلطة وأجهزتها العنيفة، إضافة إلى انتماء الصحفيين إلى "فئة من المثقفين الملتزمين الذين ناضلوا من أجل إيصال الحقيقة وهذا الأمر كلّفهم أرواحهم في أغلب الأحوال". (12)

قدّمت الروايات نماذج من الشخصيات المثقفة المتمردة والرافضة للراهن السائد، حيث تسعى بكل ما تملكه من ثقافة ووعي تغيير راهن الناس، وتبديد مختلف الأفكار السلبية، وإرساء قيم المواطنة وحرية الرأي، والحق في الحياة الهنيئة، وكلها أفكار غائبة في زمن العنف السياسي، وهذا ما يمثله أنموذج المثقف "جمال كافي" الكاتب الصحفي المعارض للنظام، والداعي للتغيير عبر مقالاته السياسية الساخرة، وهذا ما جعله عرضة لكثير من المضايقات من قبل النظام الحاكم "تفرغ جمال كافي تقريباً لكتابة المقالات السياسية المعارضة للسلطة والجماعات الدينية. وكانت تصل إلى الجرائد التي يكتب فيها رسائل تهديد كثيرة". (13)

د- المثقف والمرأة

يعدّ موضوع المرأة من المواضيع الرئيسة التي تستهوي كتّاب الرواية المعاصرة، وذلك نظراً للأدوار الهامة التي تؤديها في الوطن، وفي المجتمع، وفي حياة الفرد المثقف، حيث تفتح له أبواب الإبداع والتألق في كثير من الأحيان، كما أنّها تعرقل طريق نجاحه في أحيان أخرى.

فالمراة تحتلّ موقعاً متميزاً في خارطة الرواية الجزائرية المعاصرة، حيث تناول الكتّاب الجزائريون قضية المرأة بكثير من "الحرية في تناول، والجرأة في الطرح، وإعطاء التّصوّر الذهني والبديل". (14)

لقد تطرّق "بشير مفتي" في رواياته إلى علاقة المثقف الجزائري بالمرأة، والتي انفتحت على تمثيلات كثيرة مادية جنسية من جهة، ورمزية إيحائية من جهة أخرى. حيث تتجلى علاقة المرأة بالمثقف في تجليات عديدة نذكر منها: المرأة الأم، المرأة الحبيبة، المرأة الوطن، المرأة الجسد.

تبرز في الروايات علاقة المثقف بالمرأة الأم علاقة قوية جداً؛ فالرّوائي ينتصر لسلطة الأم على حساب سلطة الأب، حيث كانت الأم مصدرًا للحبّ والحنان والفرح، على عكس الأب الذي تظهر في أغلب الروايات صورة للأب النمطي الدكتاتوري المتسلط، القامع للحرية الفردية، وللإبداع وللثقافة. وقد تمظهرت المرأة في رواية "غرفة الذكريات" في مستويين:

- المرأة/ الجسد/ الجنس:

لقد مثلّ الجسد/ الجنس حضوراً لافتاً في الرواية ونجد أنّ "موضوعة الجنس تنمو على مستوى السرد الروائي من خلال اللغة الواصفة المشبّعة بالإيحاءات والدلالات الجنسيّة، ويمكن أن نخلص إلى خطاب الجنس في إنتاج الكتاب المغاربة ينطلق من الظروف التي عايشها ويعيشها الروائي بقيّمها وعلاقتها، ويتمّ من خلال تعامله الذاتى والاجتماعي مع تجلياتها ومنعكساتها عليه، فهو على الأساس يعيد صياغة الحياة الاجتماعية لوجوده العامّ في اللغة". (15)

لقد مثلّت المرأة/ الجنس مصدرًا لقوة الرجل ومنبع إلهامه وإبداعه، فالجسد يمثّل للمثقف "معطى إنسانيّ يتميز بخصوصيّة وفيسيولوجيّة يمكن اعتبارها المادّة الخام لنحت الكلمات والصّور البلاغيّة". (16)

في رواية "غرفة الذكريات" مثلت المرأة "إلى مرجان" لبطل الرواية "عزيز مالك" الدافع الأكبر الذي يقوده إلى سحر الكتابة وطقوسها، فحبّ هذه المرأة هو الذي أحيا فيه شهوة الكتابة بعد سنوات من العزلة والغربة والقلق، يقول "عزيز مالك": "كنت غارقاً في تساؤلاتي التي اعتدت عليها دون أن أقدم على خطوة واحدة نحو الكتابة التي أريدها. وكلّما أقدمت يستولي عليّ ضجر واستياء؛ بل وأحياناً حقد أعمى ومزير على تلك الفترة المؤلمة من تاريخنا حتى وصلتني رسالة من امرأة أحببتها بنون لفترة زمنيّة طويلة، وعشت مع حبّها آلام المخاض العنيف لولادة المشاعر القويّة". (17)

فالمرأة/ الجنس ترتبط بالفنّ ارتباطاً وثيقاً، فكأنّ الروائي جعل من الجنس الدافع الرئيس الذي يتكىء عليه الفنّان لرسم أفكاره وتصوّراته، وأمانياته وطموحاته، كما أنّه عمد إلى رسم "صور إباحيّة مفضوحة، ليبرهن على أنّ الجنس فلسفة الوجود وعمود الحضارة". (18)

- المرأة/ المدينة/ الوطن

ارتبطت المرأة في الرواية بشخصيّة المثقف ارتباطاً حميمياً، هذا الأخير أعدّها رمزاً وطنياً يتحدّ من خلالها مع صورة الوطن، الذي يأمل قربه ووصاله، خاصّة بعد سلسلة من الأزمات التي أصابت جسده، فأدخلته الغيبوبة، فأحسّ المثقف حينها بخسارة ذلك الوطن، فأراد من خلال المرأة/ الحبيبة/ الأمّ الاحتماء بحضن الوطن، والاتحاد صوفيّاً معه، فالروائي لا يهدف من وراء سرد صورة المرأة في الرواية إلى "تصوير المرأة تصويراً حسيّاً فحسب؛ بل يتخذها رمزاً لشيء آخر، كأن يرمز بها إلى الحرّيّة أو الثّورة أو الوطن". (19)

إنّ المرأة/ الوطن تمثل الذاكرة بالنسبة للشخصيات الروائية، فهي التي تختزل مراحلها العمرية، نضالها الحياتي، تواريخها المنسية، اغترابها الجسدي والعاطفي، إنّها الوطن التي تحتمي به طمعاً في النجاة من كوابيس الواقع المؤلم، وعبثية الحياة، إنّها المرأة الحلم، المرأة الفنّ، المرأة الكابوس، المرأة الطاغية، إنّها الوطن بمواطن سحره، وبشاعته، سوداويته وألقه، أحزانه وتطلعاته، إنّها المرأة الجزائرية .

فالمرأة بالرغم من قسوتها وتسلطها وهجرها تظلّ مدينة المثقف الشعريّة، وبؤرة كتاباته ودفاتر ذكرياته، وسرّ حياته فبدونها لا يستطع ذلك المحبّ أن يستمرّ في الحياة، فهي مدينة الأحلام والرغبات التي يهرب إليها بطل الرواية بحثاً عن الحبّ والأمان والخلص، كما تمثّل رمز المقاومة والبقاء في وطن الجزائر، فهي التي تمنحه صوت التّفاؤل بوجهها الملائكي، وجلال روحها، كما تمنحه أيضاً تذكرة الإبحار إلى عوالم السّحر والإبداع، والتّواصل مع الوطن الجريح .

إنّ المرأة هي الحياة الأخرى والوطن الآخر الذي يحلم به الإنسان بعيداً عن الحسابات الاجتماعية والسياسية والمعتقدات الفكرية، فهي تسكن كيان المثقف وتفتنه بجغرافية أنوثتها، وتضاريس عبقها الأنثوي، فتكون تذكرته نحو عوالم الدهشة والرّوعة، ومنقذته في زمن الهلاك والفتنة والقتل "كنت أحبّها دون حسابات، كانت تعديني بالحياة الأخرى التي أتمنى أن أعيشها، بالجنة التي أرغب في دخولها، بالأشياء التي أرغب أن نتقاسمها في دكنة ذلك الزّمن الكابوسي اللّعين". (20)

- صور الاغتراب ومظاهره في رواية "غرفة الذّكريات" هـ

:الاعتراب الوجودي -

لقد تناولت روايات "بشير مفتي" ظاهرة الاغتراب الوجودي، وركّزت على تصوير مختلف مظاهره المختلفة؛ ويرجع تطرّق "مفتي" إلى موضوع الاغتراب الوجودي لطبيعة الشخصيات الروائية القلقة، التي عرضت همومها الإنسانية وضياعها وقلقها من الوجود في ظلّ واقع حياتي قتل فيها حبّ الحياة، فالاغتراب وفقاً للفلسفة الوجودية يمثّل "قضية إنسانية ترتبط بوجود الإنسان في العالم، وبالتالي فإنّ مفهوم الاغتراب الوجودي يحاول استبعاد كافة الأحكام التقويمية؛ لأنّ تلك الأحكام من شأنها أن تمهّد السبيل للقضاء عليه أو تجاوزه. وهذا غير قائم في مفهوم الاغتراب بمعناه الوجودي". (21)

ويعتبر الاغتراب الوجودي في رواية "غرفة الذّكريات" في الاغتراب الذاتي والتّقي والضياع.

-الاعتراب الذاتي

إنَّ أصعب شيء يواجهه الإنسان حقيقة عجزه عن مواجهة ذاته، حيث يحيا عذابًا داخليًا وغربةً نفسيَّةً عن مختلف مظاهر الوجود الإنساني، وهذا ما يؤثر فيه، ويجعله يعيش زمن الألم والمعاناة، يقول "سمير عمران" وهو يشرِّح ذاته "يكفي أن يجد الإنسان نفسه في مواجهة حقيقة مع ذاته حتى يتألَّم؛ لأنَّه يدرك فاجعته الداخليَّة، إحساسه العميق بالغربة وعدم قدرته على تحقيق ما يرغب حتى ولو حقَّق ما استطاع تحقيقه." (22)

- النَّفي والضَّياع

لقد أضى الوطن منفى رمزي لأبنائه المثقفين، ومصدر بؤسهم وقلقهم، فالإنسان المثقف في خضم تلك الانهيارات والأزمات التي تصيب وطنه، يظلَّ عاجزًا عن إيجاد البديل الأفضل، بل يدخل حالة نفسية صعبة من الإحباط واليأس الشديد؛ بل تقف أداة المقاومة الرَّمزيَّة - الكتابة - عاجزة عن مواجهة ذلك الرَّهن الصَّعب، فيقف المثقف منهزمًا، عاجزًا، ضائعًا، مقيد الفكر والروح "كان أسوأ شيء في السَّنوات الأخيرة عدم قدرتي على فهم ما يحدث جيِّدًا من حولي. لم أعد ذلك المثالي الحالم، ولا المناضل الرومانسي الذي كنته في الثَّمانيَّات وبداية التسعينيات مع ميولات أدبيَّة جذابة وأسرة، ورغم رؤيتي التَّشاؤميَّة للحياة والنَّاس الذي يحيطون بي، إلَّا أنني كثيرًا ما شعرت أنَّ لي رؤية متفائلة أو حالمة، وأرغب أن تتحقق يومًا ما، كحلم غريب سيجعل الحياة ممكنة حتى فاجأنا إحصار الموت والدَّم." (23)

:الاعتراب السِّياسي -

يرتبط الاعتراب السِّياسي عادةً بالرفض الذي يتعرَّض له الإنسان من قبل المنظومة السِّياسيَّة التي تعرقل مساره النَّضالي، كما تعمل على الحدِّ من أدواره المختلفة، وهذا ما يشعره بالاعتراب عن الحياة السِّياسيَّة، والتي ينجم عنها تقييدًا "لحرية الفرد، وعدم وجود فرص لتحقيق أهدافه، وبالتالي يدرك الإنسان نفسه بوصفه فاشلًا في محاولاته لتحقيق هذه الأهداف." (24)

لقد عاشت البلاد مرحلةً عسيرةً نتيجة تفاقم الفساد السِّياسي، وهذا ما أدخل البلاد وضعًا صعبًا، نتج عنه الطَّبقيَّة والميز العنصري، إذ أفقدها معالمها، فغابت مصلحة البلاد بعد أن حلَّت المصلحة الفرديَّة "... إنَّ الأمور في بلدنا ظلَّت متداخلة دائمًا، حتى نشعر أنَّه لا يوجد أي مسافة أو فرق.. مال البلد هو مالهم.. عقارات البلد هي عقاراتهم.. خزائن البلد هي خزائنهم. إنَّهم يعطوننا شعورًا أننا نعيش في مزرعة يملكها عدَّة إقطاعيين فاشلين لا غير." (25)

:الاعتراب الإجماعي -

.ويتمظهر في الرواية في اللانتماء والعزلة الاجتماعية

:اللانتماء -

إنّ اللانتماء يكرّس رؤية الإنسان للوجود وللعالم التي كلّها مرارةً واغتراباً، فهذه الرؤية تكرّس النظرة السلبية للمحيط الاجتماعي وللأفراد والجماعات. والملاحظ أنّ دوافع لانتماء المثقف مردها "العجز عن القيام بالدور المنوط بالمثقف، والمهمة الملقاة على عاتقه، وهي تغيير المجتمع إلى الأفضل والأجمل". (26) فهذا الإنسان اللانتمائي يشعر أنّه يعيش عزلةً اجتماعيةً عن مجتمعه وواقعه، فينفصل عنهما، فهو يعيش عالمه الخاص، ويرى أنّ أفكاره ورؤاه هي الصائبة، وكلّ من حوله واهمين، وغير حقيقيين.

إنّ مرارة الواقع والضغوط التي يمارسها المجتمع ضدّ الفرد، تجعل هذا الأخير يشعر بعدم انتمائه لهذا العالم، حيث يرى أنّ أحلامه وآماله في الحياة انعدمت في ظلّ واقع سلطوي مارس عليه سلطته، وحرمه من التمتع من بعث أفكاره وتصوّراته؛ فينزوي بعيداً عن ذلك العالم ويهرب بأحلامه.

فالواضح أنّ كلّ الظروف المحيطة بالمثقف تدفعه لاختيار اللانتماء على التكيّف مع أوضاع مجتمعه وبيئته، والتي عادةً ما تكون ضدّ مبادئه وقناعاته وتصوّراته الفكرية "من عادتي أن لا أضع نفسي في مكان الآخرين، وأن لا أحاول النّظر للحياة من زاوية رؤيتهم لها، مقتنعاً أنّ لكلّ واحدٍ منّا زاوية رؤيته الخاصة في النهاية، مقاربتة المختلفة للعالم وتجربته المميّزة التي يستوعب، ويتعايش من خلالها مع الممكنات التي تتاح له أن يعيشها". (27)

- العزلة الاجتماعية/ العجز الاجتماعي

تنشأ العزلة الاجتماعية عادةً من شعور أفراد المجتمع بالاغتراب عن مجتمعهم سواءً من ناحية الأفكار، أو القيم المشكّلة لذلك المجتمع. فهذا الاغتراب "لا يعود غالباً إلى افتقاد الهامشيين القدرة على التكيّف مع الثقافة العامّة ولكنّه يعود بالدرجة الأولى إلى عجز المجتمع على استيعاب هؤلاء الأفراد ودمجهم في نسيجه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي". (28)

إنّ هؤلاء الأشخاص الهامشيون يشعرون بعدم قدرتهم على الاندماج مع هذا المجتمع الذي لا يقدر إمكانياتهم ولا مواهبهم، ولا يفتح أمامهم سبل النّجاح وفرص التألّق، حيث يشعرون بأنهم "لا يتمتّعون بحقوقهم الأساسية في المجتمع، وأنهم ضعيفو التأثير في من حولهم، ولا يوجد لهم دور فاعل في المجتمع، ويشعرون

بالعجز نظرًا لعجز السياق الاجتماعي عن إشباع الحاجات الأساسية لهؤلاء الشباب، مما يجعلهم عرضةً لمشاعر الاغتراب خاصة الشعور بالعجز. (29)

ترصد الرواية بعض الشخصيات التي تعيش عجزاً وعزلة اجتماعية بسبب الظروف الاجتماعية المحيطة بهم، فهذه البيئة الاجتماعية تمارس ضغوطاً وقيداً على المثقف، وهذا ما جعله يعيش غرباً واغتراباً عنها، لأن هذا الأخير عاجز عن تفعيل المنظومة الفكرية التي يعتقها، فأكثر شيء كان يحلم به المثقف هو حلم الثورة، حلم التغيير، حلم بناء جيل جديد قادر على إشعال فتيل الثورة لتحرير الوطن من غياهب الظلمات وشرارة العنف، غير أن إرادة التغيير الاجتماعي والسياسي قوبلت بالتجاهل، وهذا ما ولد في داخله مرارة قاتلة، وخيبة أمل، وجرح مكتوم، فكل شيء في بيئته يوحي بالعدمية والفناء والقتل "لا تهزمننا الكلمات لكن الحلم يهزمننا عندما يصير كابوساً... الواقع عندما يتخلى على أن يكون شاعرياً... الحياة عندما تعادي الحياة.. الوهم عندما يتلبس أقنعة الحقيقة.. الحقيقة عندما تصبح آلة قتل مدمرة." (30)

3- بناء شخصية المثقف في رواية "غرفة الذكريات"

تعدّ الشخصية من أهم عناصر العمل الروائي، حيث تقوم بتحريك الأحداث وتفعيلها، فالروائي الحقيقي هو الذي يعرف كيف يخلق الشخصيات ويبنيها في روايته من خلال أفرادها بجملة من الخصائص الفيزيولوجية والنفسية المحددة لمواقفها ويعرفها "محمد بوعزة" في كتابه "تحليل النص السردي" بأنها "كائن خيالي تبنى من خلال جمل تتلفظ بها أو يتلفظ بها عنها." (31)

إن اختيار الشخصيات الروائية في الرواية الجديدة لا يتم اعتباطياً؛ بل عن قصدية والتي ترمي إلى خلق تناغم بين اسم الشخصية وما رسم لها من دور في الرواية، بحيث توظف توظيفاً عملياً، وهذا ما ذهب إليه الرمزيون والشعريون أمثال "تودوروف" (Todorov) الذي يقرّ أن "التسمية غير بريئة؛ بل تخضع بدقة إلى الوظيفة التي أوكلت إلى الشخصية المقصودة بها. وهذا الصنيع في حد ذاته جزء من البناء العام لملاحق الشخصيات، وتحديد إطار حركتها عبر الخطاب السردي." (32) فالرواية لا تقدم الشخصيات بطريقة عادية؛ بل بطريقة سيميائية.

ما يلاحظ على شخصيات رواية "غرفة الذكريات" بنائها الفلسفي المعقد، حيث تحمل هذه الشخصيات رؤية وجودية، كما يلاحظ على مستوى البناء الروائي أنها شخصيات نمطية، قلقة، عابثة، كارهة لوجودها، مغتربة ذاتياً واجتماعياً ووطنياً.

وسنقوم بالتطرق إلى إجلاء أهم الشخصيات المثقفة في الرواية، إضافة إلى التطرق إلى طريقة بنائها وعرضها.
- عزيز مالك

قدّمت هذه الشخصية بشكلٍ سلبي انهزامي، فقد كان في الأول إنسان متحمّس للحياة، وكان حلمه الأكبر أن يكتب رواية، لكن خيبة أحلامه كانت كبيرة نتيجة عجزه عن الكتابة وكم كانت هذه التجربة قاسية عليه، ما نجم عنها انعزاله وفقدانه تلك النظرة التفاؤلية للحياة التي كانت أكثر قسوةً عليه "لا تتصوّروني الآن كاتبًا ساديًا، يجب أن يعذب نفسه بنفسه كي ينال رضا معشوقته النارية/ الكتابة، وهي تصهده وتحرقه وتذيقه ويلات الاقتراب من تلك النار الحارقة(33)".

-ليلى مرجان

المرأة التي عشقها "عزيز مالك"، نكيّة، على قدر كبير من الجمال والأناقة، تعمل في مستوصف، سافرت إلى كندا هربًا من سنوات المحنة السوداء، ف"ليلى مرجان" شغف "عزيز مالك" وحلمه الأعظم، وجنونه الأكبر، حيث يصف ملامحها في قوله: "شعرها الأسود الطويل الذي تتركه متهدلاً على كتفيها، والذي يحولها إلى عروس بحر نادرة يهتف لها البحارة المغامرون وينشد لها الموسيقيون الأغاني الجميلة، ويكتب عنها الشعراء أحلى وأجمل القصائد. عيناها السوداويتان الواسعتان اللتان تشعران الناظر إليهما كأنه يسافر في ليلة داكنة السوداء، مقمرة الوجه.."(34)

إن شخصية الحبيبة "ليلى مرجان" كان حضورها في الرواية مختلفًا عكس الشخصيات النسوية التي قدمتها روايات "مفتي" السابقة والتي فشلت علاقات حبّهن مع أبطال الروايات وذلك راجع لتأثيرات الحرب السليبية، إلا أنّ "ليلى مرجان" لم تؤثر سنوات الحرب، والاعتراب خارج الوطن على مشاعرها نحو "عزيز مالك" بدليل التّواصل بينهما عبر الرسائل، ونهاية قصة حبّهما بالانتصار، وبعودتها من "كندا" إلى الجزائر للقائه والبقاء إلى جانبه.

- سمير عمران:

شاعر حالم، عريبيد، متردّد على الحانات، يعمل أستاذًا بالجامعة، إضافة إلى عمله كمترجم بمركز ثقافي، كان يحبّ اللغة الإسبانية حبًا جمًّا ومتأثر بها، قليل الكلام، يتمنّع بالفصاحة وطلاقة اللسان، والثقافة الأدبية الغزيرة، عاشق لامرأة تدعى "باية"، تمظهر في الرواية بطريقة سلبية انهزامية، فقد كان دائم الشرود والقلق، ولم يقدر على تغيير الأوضاع، يقول عنه "عزيز مالك": "طبيعة سمير عمران لا تميل إلى الصّدام ولا المواجهة، وأنّ كلّ

هذا الوضع كان قاسياً على نفسيته الهادئة دائماً، كأنه كان يملك بداخله عنف السلب المدمر، تراثاً من الخيبات والهزائم المنكرة والتي تجعله غير قادر على المواجهة، وحتى مع الورقة البيضاء يجد صعوبة كبيرة في تحديها". (35)

- جمال كافي:

شاعر، متأثر بشعراء السيريالية الفرنسية أندري بروتون، وبتيار "دادا"، وشاعره الأول "تريستين تزارا"، قلق، عدمي، كئيب معارض للسلطة وللجماعات الارهابية، "رجل قوي، شخص متسيد ومتسلط". (36)

ويكن القول إن الروائي قد بنى شخصياته الروائية بناءً فلسفياً وجودياً، حيث توضحت هذه الشخصيات مأزومة، عابثة، مستسلمة، ذات رؤية وجودية تمجدّ العدم، القلق الوجودي، والرؤية التشاؤمية للحياة. خاتمة:

في الأخير يمكن استخلاص أهمّ النتائج:

- لقد تناولت رواية "غرفة الذكريات" لـ "بشير مفتي" تمثلات المثقف بمختلف أشكاله وأنماطه، حيث عالج الروائي واقع المثقف الجزائري وعلاقاته المختلفة مع محيطه الاجتماعي والسلطة السياسية خاصة في فترتي السبعينيات والتسعينيات.

- قدمت الرواية العلاقة الحميمة بين المثقف الجزائري والمرأة التي تجلّت في مظهرات عديدة مادية جنسية منها، ورمزية إيحائية، حيث أبرز الروائي الدور الهام الذي تؤديه المرأة في حياة المثقف، والتأثير الكبير لها في إنتاج الثقافة والفكر وتنمية القدرات والطاقات الإبداعية له.

- تطرقت الرواية إلى صور اغتراب المثقف، حيث رصدت ملامح اغترابه، وقد تجلّت هذه الصور في الاغتراب الوجودي، الاغتراب السياسي، الاغتراب الاجتماعي، وكلّ هذه الصور أدت بالشخصيات المثقفة إلى الإحساس بالانفصال عن العالم، والشعور بالتهميش والعجز، والعزلة والصّياح، والنفي والقلق الوجودي.

- توضحت الشخصيات المثقفة في الرواية هشة البناء، مأزومة، مهزومة، لامنتمة، سلبية غالبية الأحيان، متمرّدة معارضة في أحيان قليلة، مغتربة تشعر بالانفصال عن العالم وعن ذاتها، كما تشعر بالتهميش والعجز، العزلة والصّياح، و النفي والقلق الوجودي.

الإحالات والهوامش

- 101- ينظر: أبو الفضل ابن منظور لسان العرب، دار الأبحاث، الجزائر، 2008، ط1، ج2، ص 1-101.
- 102- ينظر، المرجع نفسه، ص 2-102.
- 3- محمّد رياض وتّار: شخصيّة المثقف في الرّواية السّوريّة، دراسة، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999، ص 3-12، دط، ص
- 4- كلود ليوزو: العنف، التّعذيب، الإستعمار، من أجل الذاكرة الجماعيّة، ترجمة مجموعة من الأساتذة، دار القصة للنشر، الجزائر، 2013، دط، ص5.
- 5- عبد السلام محمّد الشاذلي: شخصيّة المثقف في الرّواية العربيّة الجديدة، دار الحداثة، الجزائر، 1985، ص 5-25، ط1، ص
- 21- المرجع نفسه، ص 6-21.
- 7- هويدا صالح: صورة المثقف في الرّواية الجديدة، الطرائق السردية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013، ط1، ص68.
- 8- بشير مفتي: غرفة الذكريات، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2014، ط1، ص66.
- 224- المصدر نفسه، ص 9-224.
- 10- سعاد عبد الله العنزي: صور العنف السياسي في الرّواية الجزائريّة المعاصرة، دراسة نقدية، دار الفراشة، الكويت، 2010، دط، ص50.
- عبد اللطيف حيّ: الرّواية الجزائريّة ووعي الكتابة، أعمال الملتقى الثاني في الأدب الجزائري، الوادي - 2009، ص 11-2009.
- 50- سعاد عبد الله العنزي: صور العنف السياسي في الرّواية الجزائريّة المعاصرة، ص 12-50.
- 13- بشير مفتي: غرفة الذكريات، ص 214-13.
- 12- مفقودة صالح: المرأة في الرّواية الجزائريّة، دار القصة للنشر، الجزائر، 2000، دط، ص 14-12.
- عبد الوهاب بوشليحة: خطاب الحداثة في الرواية المغاربية، من إصدارات نادي الأحساء الأدبي، ص 15-128.
- 218- السعودية، ط1، 2011، ص 1-218.
- 16- هويدا صالح: نقد الخطاب المفارق السرد النسوي بين النظرية والتطبيق، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014، ط1، ص162.

- 17.17 بشير مفتي غرفة الذكريات، ص -
- 18- إبراهيم رماني: إضاءات في الأدب والثقافة والإيديولوجية، دار الحكمة، الجزائر، 2009، دط، ص330.
- 19- مفقودة صالح: المرأة في الرواية الجزائرية، ص252.
- 20- بشير مفتي: غرفة الذكريات، ص -20
- 21- حسن حماد: الاغتراب الوجودي دراسة في جدل الصراع بين الرغبة في التفرّد وغواية الامتثال، هلا -21
- 48- للتّشّير والتّوزيع، مصر، 2008، ط1، ص
- 22- بشير مفتي: غرفة الذكريات، ص67.
- 14- المصدر نفسه، ص -23
- 24- عبد اللّطيف محمّد خليفة: دراسات في سيكولوجية الإغتراب، دار غريب، القاهرة، دط، 2003، ص100.
- 25- بشير مفتي: غرفة الذكريات، ص99.
- 26- محمّد رياض وتّار: شخصيّة المثقف في الرواية السّوريّة، ص119.
- 145- بشير مفتي: غرفة الذكريات، ص -27
- 144- عبد اللّطيف محمّد خليفة: دراسات في سيكولوجية الإغتراب، ص -28
- 29- المرجع نفسه، ص 144 - 145.
- 71- بشير مفتي: غرفة الذكريات، ص -30
- محمّد بوعزّة: تحليل النّص السّردّي، تقنيّات ومفاهيم، منشورات الاختلاف، الرّباط، 2010، ط1، -31
- ص4.
- 32- عبد المالك مرتاض: تحليل الخطاب السّردّي، سلسلة المعارف، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1995، دط، ص135.
- 125- بشير مفتي: غرفة الذكريات، ص -33
- 34- المصدر نفسه، ص74.
- 55- المصدر نفسه، ص -35
- 36- المصدر نفسه، ص192.